الفصل الثالث

استبدال التركيب بالتركيب

إذا كانت اللغة: «هي التنظيم المثالي الداخلي الذي يفرض على المتكلم تصوراً ورؤية لما يحيط به في العالم الخارجي»[1]، فإن العلاقة بين اللغة والفكر جليّة من خلال التعبير عن مقاصده بالتراكيب النحوية التي تحوي في تكوينها الأدوات والصيغ بالتناسق الذي عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[2]مؤلفة الجملة التي تعرف بأنها «المركب الذي يبيّن به المتكلم أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع»[3].

والجملة في علم النحو هي: «الركيزة الرئيسة في التحليل اللغوي، وهي «الوحدة اللغوية الأكبر في التحليل اللغوي»[4]، ذلك أن المكونات اللغوية تتضافر فيما بينها على وفق أصول مرعية تبلغ غايتها عند الجملة، وتعمل هذه الأصول متضامّة بنظام من العلاقات، لأن «أجزاء الجملة مترابطة، فالجزء الواحد يقتضي الآخر في تنظيم علائقي»[5]، وتتجلى هذه العلاقات بشكل واضح في القرآن الكريم الذي يستبدل التركيب فيه بالتركيب كما تستبدل الأداة بالأداة

(1) خليل أحمد عمايرة - في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، جدّة، 1984م، ص: 44.
(2) دلائل الإعجاز، ص: 40 - 41.
(3) مهدي المخزومي - في النحو العربي، نقد وتوجيه، بيروت، 1964م، ط 1، ص: 31.
(4) جوانب من نظرية النحو، ص: 9.
(5) Linguistics units and items: P: 10.

والصيغة بالصيغة، لتحقق بوساطة ذلك المقاصد الدلالية التي تناسب الأحداث والمواقف والدعوات ومعاني الأحكام الشرعية بالدقة الإعجازية التي لا تُحدّ، مما هو سمت القرآن الكريم في كل أسرار بنائه اللغوي.

ومما تجب الإشارة إليه في هذا الموضع سعة التعبير بالتراكيب الفعلية في القرآن الكريم وكثرتها بحيث لا يتسع البحث لاستيعابها جميعاً في هذا المقام، لأن التعبير بهذه التراكيب أصل من أصول بناء الكلام العربي، وسنفرغ نحن في هذا الفصل لدراسة أنماط استبدال التركيب فيه بالتركيب، لنأتي بذلك على النوع الثالث من أنواع الاستبدالات النحوية التي رصدناها في نصّه المعجز الرفيع.

الفعلي الماضوي ← الفعلي الماضوي:

قال تعالى في سورة الأعراف[1]: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، وقال في سورة البقرة[2]: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، فذكر الإرسال والإنزال بفعليهما الماضيين. السياق في سورة البقرة وارد في مقام تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، وفي سورة الأعراف في مقام تقريعهم وتأنيبهم، كما أسلفنا[3]، والإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، لأنه في العذاب: التسليط[4]، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝﴾[5]، وقال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[6]، وقد وقف الفخر الرازي عند الفرق بين

(1) سورة الأعراف، الآية: 162.
(2) سورة البقرة، الآية: 59.
(3) ينظر: الصفحة 89 من هذا الكتاب.
(4) لسان العرب: (11/285) مادة: رسل؛ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: 203.
(5) سورة الفيل، الآيتان: 3 - 4.
(6) سورة الذاريات، الآية: 41.

الإرسال والإنزال متسائلاً بقوله: «لِمَ قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾، وقال في الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؟» ثم أجاب بقوله: «الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث بالآخرة»[1]، ولا تخفى أن التعبيرين: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿فَأَنزَلْنَا﴾ يتقاسمان معنىً مشتركاً، غير أنهما يختلفان في المعنى التنظيمي المعتمد على الرابطة التي تشدّ الكلمة بالكلمة على وفق دواعٍ صريحة وإيحائية تبدأ من المعنى المعجمي وتنتهي بالمعنى السياقي الذي يواشج بين المقامات المقالية والحالية مواشجةً دلالية ظاهرة أو خفية، مما يلمسه الإنسان بالتأمل والتذوق والبصيرة اللغوية النافذة، ومن هنا كان الإرسال متسقاً مع الظالمين من بني إسرائيل ليُعلم أن الرجز قد سُلّط عليهم تسليطاً خاصّاً بهم لتفاقم جرمهم، بخلاف الإنزال الذي أخذ القوم، وكأن في اتساع الدائرة مما يخفف نوع العذاب الذي لحق بكل فرد منهم بوصفهم فسقة ليس إلّا، وبرصد ما جرى من تحويل في مكونات التركيب الكبير في الآيتين:

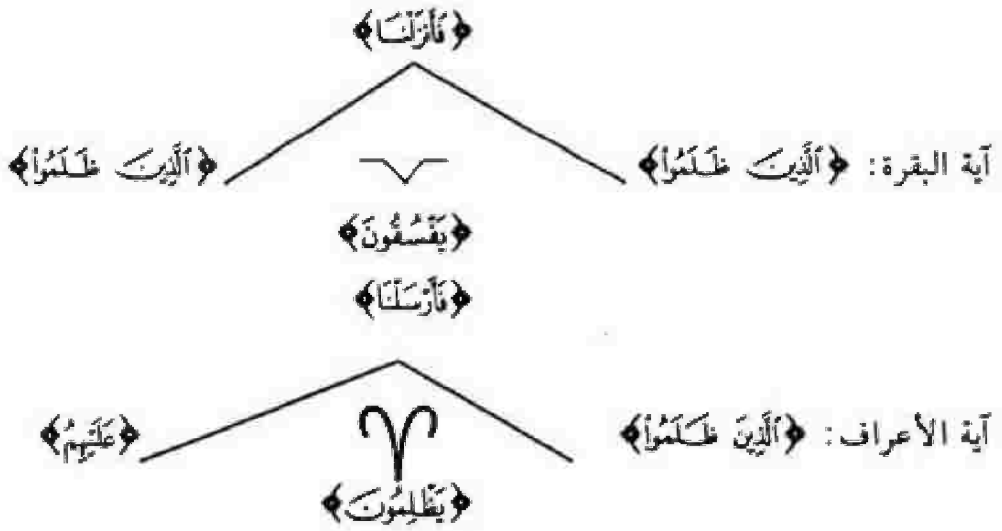

(1) التفسير الكبير: (3/ 94)؛ وينظر: (15/ 35).

سنرى أن «الظلم» أشدّ دلالة من «الفسق»، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق[1]، لذلك ناسب ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ مقام سورة الأعراف، و﴿أَنزَلْنَآ﴾ و﴿يَفْسُقُونَ﴾ مقام سورة البقرة، فضلاً عن كثرة استعمال كلمتي «رسول» و«رسالة» في الأعراف[2] دون البقرة، وما يمكن أن يتصور من اقتضائه لفعل الإرسال بوصفه نسقاً لغوياً ملحوظاً ومقصوداً في بناء السورة كلها.

ومن استبدال التركيب الفعلي الماضوي بنظيره أيضاً، قوله تعالى في سورة الأعراف[3]: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وقوله في سورة النمل[4]: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، فذكر كينونة امرأة لوط في الغابرين، وما قدّر لها أن تكون فيهم. والفرق كبير بين العبارتين: ﴿كَانَتْ﴾ و﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾، لأن فعل الكون ماضٍ ناقص محتاج إلى اسم وخبر، وهو دالّ على أن بقاء المرأة مع المهلكين من قوم لوط لتهلك معهم كان بمحض إرادتها، بيد أن الجملة الأخرى بفعلها الماضي وفاعله ومفعوله دالّة على أن بقاءها وهلاكها كان بتقدير من الله تعالى، فإذا عرفنا أن سورة الأعراف سابقة في النزول لسورة النمل أدركنا في تمثل معنى العبارتين: أن المرأة كانت من الهالكين بمحض إرادتها واختيارها بتقديره تعالى وعدله[5]. ومما يُلحظ من أسرار العبارتين أن: العلاقة القائمة بين (كان) و«امرأة لوط» في آية الأعراف علاقة خبرية:

---

(1) ينظر: الإتقان: (3/ 392 - 393)؛ معترك الأقران: (1/ 88).

(2) الآيات: 6، 35، 37، 43، 53، 57، 59، 61، 62، 67، 68، 75، 77، 79، 87، 93، 94، 101، 104، 105، 111، 133، 134، 144، 157، 158، 162.

(3) سورة الأعراف، الآية: 83.

(4) سورة الأعراف، الآية: 57.

(5) ينظر: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص: 193.

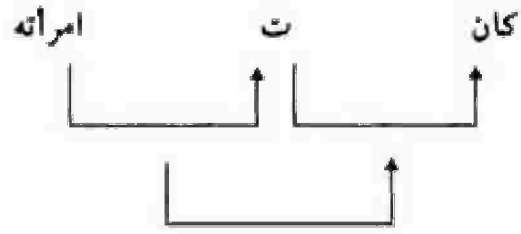

علاقة خبرية

ويفهم من هذا: أن الله تعالى يخبرنا عن أمر تلك المرأة دون تدخل مباشر منه، بخلاف العلاقة القائمة بين الفعل «قدّر» و «امرأة لوط» في سورة النمل، لأنها فاعلية ومفعولية:

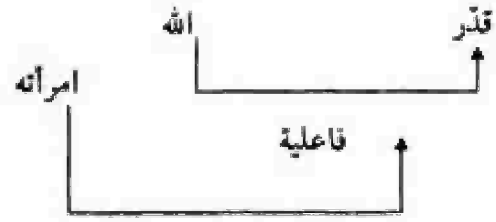

مفعولية

ويفهم من هذا: أن الفعل المباشر هو من عند الله في القضية كلها، بدليل إسناد التقدير إلى نفسه بضمير الجمع: «نا». هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن تقدير الله تعالى بإهلاك امرأة لوط مع من هلك قد جاء في سورة النمل بعد قوله على لسان قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1]، فقد خلع هؤلاء القوم رداء الحياء، وجهروا بالفاحشة فزاد لوط عليه الصلاة والسلام في الإنكار عليهم وتقريعهم، فقال تعالى على لسانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2]،

(1) سورة النمل، الآية: 56.
(2) سورة النمل، الآيتان: 54 - 55.

فقابلوه بالتصريح بإخراجه مع أهله، فكان تقدير الله تعالى بقاء امرأته معهم ليصيبها ما يصيبهم من الهلاك لأنها منهم بالإعتقاد والمناصرة على الفعل الفاحش.

ومن الاستبدال المذكور نفسه قوله تعالى في سورة الأعراف[1]: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقوله في سورة البقرة[2]: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فقد استبدل التركيب الفعلي الماضوي: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ بنظيره: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

والفرق بين الإزلال والتدلية أن الزلّة قد تكون في الموضع نفسه، يقال: زلّ الإنسان عن الصخرة، إذا زلق[3]، قال الأزهري (282 - 370 هـ): «إذا زلّت قدمه قيل: زلّ وإذا زلّ في مقال أو نحوه قيل: زلّ زلّة، وفي الخطيئة ونحوها»[4]، فهو من الزّلل[5]، ومعناه: إنّ الشيطان حمل آدم وحوّاء على الزلّة، فنحاهما عن الجنة، وإزلاله لهما قوله لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[6]، وقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[7].

أمّا التدلية فلا تكون إلّا إلى أسفل، لأنها من التدلية في البئر، فإذا دلّيت أحداً

(1) سورة الأعراف، الآية: 22.
(2) سورة البقرة، الآية: 36.
(3) لسان العرب: (11/ 306) مادة: زلل.
(4) تهذيب اللغة، القاهرة، 1966 م، ج 13، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني وعلي محمد البجاوي، ص: 164 مادة: زلّ.
(5) الأخفش الأوسط - معاني القرآن، تحقيق: فائز فارس، الكويت، 1981، ط 2: (1/ 67).
(6) سورة طه، الآية: 120.
(7) سورة الأعراف، الآية: 20.

فقد أنزلته إلى أسفل «وأصلهُ الرجلُ العطشان يدلّي في البئر ليروي من مائها فلا يجد فيها ماءاً فيكون مدلّى فيها بالغرور، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعاً»[1]، وقال الجوهري، (ت 393 هـ): «و﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: أوقعه فيما أراد من تغريره، وهو من ادلاء الدلو»[2]، ويكون المعنى: إنّ الشيطان أوقع آدم وزوجه في المعصية بغروره وإلقائهما فيها[3]، وفي هذا تنبيه على أنه أنزلهما بذلك من درجة عالية[4]. وقد خُففت المعصية في آية البقرة وسميت زلّةً مراعاة لمقام تكريم آدم عليه الصلاة والسلام في سياق آيات البقرة، بدأ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[5]، بخلاف السياق في سورة الأعراف التي حوت استفهاماً تقريرياً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مشعراً بأن الحدث وقع بعد النهي، وفي ذلك خروج عن أمر الله بغرورٍ من الشيطان الذي أوقعهما فيما هو أكبر من الزلّة والمعصية اليسيرة المذكورة في سورة البقرة، فصوّرت حالتهما في آية الأعراف بعد الإخراج بما يُشعر بالمعاناة والتعب المستقبل في الحياة لجسامة المعصية التي وقعا فيها.

ومن الاستبدال نفسه أيضاً قوله تعالى في سورة الزمر[6]: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وقوله في سورة النحل[7]: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وذلك بين التركيب الفعلي الماضوي: ﴿عَمِلُوا۟﴾ ونظيره: ﴿كَسَبُوا۟﴾.

ومما يُلحظ في الآيتين أن الكسب والعمل قد اختيرا ووضعا في موضعهما من

(1) تهذيب اللغة: (14/ 172) مادة: دال؛ وينظر: التفسير الكبير: (14/ 49).
(2) الصحاح: (6/ 2339) مادة: دلو.
(3) الزجاج - إعراب القرآن المنسوب إليه: (3/ 801).
(4) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (3/ 221).
(5) سورة البقرة، الآية: 30.
(6) سورة الزمر، الآية: 51.
(7) سورة النحل، الآية: 34.

الآيتين حفاظاً على نسق لغوي واحد انبنى على جذر «ك. س. ب» في آيات سورة الزمر، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1]، وقال: ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[2]، وعلى جذر «ع.م.ل» في آيات سورة النحل[3]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، وقال: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، وقد وجدنا ذكراً للفظ الكسب خمس مرات[7] في سورة الزمر، ولم نجده البتة في السورة الأخرى.

وأمثلة استبدال التركيب الفعلي الماضوي بنظيره كثيرة في القرآن الكريم منها، فضلاً عمّا ذكرناه، قوله تعالى في سورة الأنعام[8]: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وقوله في سورة النحل[9]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وذلك بين ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ و﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ وسياق الآيات في سورة الأنعام في الكلام على الشرك وعلى ما

(1) سورة الزمر، الآية: 24.
(2) سورة الزمر، الآية: 51.
(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 408 - 409؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 122 - 123؛ ملاك التأويل: (2/ 739 - 740).
(4) سورة النحل، الآية: 28.
(5) سورة النحل، الآية: 111.
(6) سورة النحل، الآية: 119.
(7) الآيات: 24، 48، 50، 51، في موضعين.
(8) سورة الأنعام، الآية: 148.
(9) سورة النحل، الآية: 35.

زعمه المشركون من محرّمات الأطعمة، وما اعتقدوه من أمور باطلة في أنصبة الحرث والأنعام، وقد كانوا يخصّون الله تعالى منها بأشياء وآلهتهم بأشياء[1]، ويفترون على الله التحليل والتحريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾[4]، وقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[5]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ . . .﴾[6]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[7]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا

(1) ينظر: الكشاف: (2/ 52).
(2) سورة الأنعام، الآية: 1.
(3) سورة الأنعام، الآية: 136.
(4) سورة الأنعام، الآيتان: 138 - 139.
(5) سورة الأنعام، الآية: 143.
(6) سورة الأنعام، الآية: 144.
(7) سورة الأنعام، الآية: 145.

﴿ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[1]، وقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ﴾[2]. وسياق الآيات في سورة النحل في الرد على المشركين، وتنزيهه تعالى عن اتخاذ الشركاء، والنعي عليهم في معبوداتهم الباطلة، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]، وقال: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[5]، وبيّن ﷻ أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلّا مخلوقات مثلهم، بل هم أحطّ منهم، لأنهم أموات لا يشعرون، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[6]، وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[7]، ثم قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ﴾[8]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[9]، وتستمر السورة في بيان أن كل شيء عابد لله تعالى خاضع لمشيئته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[10]،

(1) سورة الأنعام، الآية: 146.
(2) سورة الأنعام، الآية: 148.
(3) سورة النحل، الآية: 1.
(4) سورة النحل، الآية: 3.
(5) سورة النحل، الآية 17.
(6) سورة النحل، الآيات: 20 - 22.
(7) سورة النحل، الآية: 27.
(8) سورة النحل، الآية: 35.
(9) سورة النحل، الآية: 36.
(10) سورة النحل، الآيتان: 48 - 49.

وقال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[2]، فلما كان سياق الآيات في سورة الأنعام في الكلام على الشرك في التحليل والتحريم وبالأخص في الأطعمة، فقد استحضر جذره اللغوي في موضع الاستبدال دون جذر العبادة كما في الآية الأخرى[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تكاثر ذكر الشرك في سورة الأنعام، حتى بلغ تسعة وعشرين موضعاً[4]، مقابل أحد عشر موضعاً في سورة النحل[5].

ومن الاستبدال نفسه قوله تعالى في سورة النساء[6]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقوله فيها أيضاً[7]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، فوقع الاستبدال في موضع جواب الشرط بين ﴿ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ و﴿افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وقد ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ رداً على اليهود الذين عرفوا صحة نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله، ولكنهم لم يؤمنوا، لأنهم كما وصفهم تعالى قبل الآية المذكورة بقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾[8]،

(1) سورة النحل، الآية: 52.
(2) سورة النحل، الآية: 73.
(3) ينظر: التعبير القرآني، ص: 231 - 234.
(4) الآيات: 14، 19، 22 في موضعين: 23، 41، 64، 78، 79، 80، 81 في موضعين، 88، 94، 100، 106، 107، 121، 136 في ثلاثة مواضع، 137 في موضعين، 139، 148 في موضعين، 151، 161، 163.
(5) الآيات: 1، 3، 27، 35، 54، 86 في ثلاثة مواضع، 100، 120، 123.
(6) سورة النساء، الآية: 48.
(7) سورة النساء، الآية: 116.
(8) سورة النساء، الآية: 46.

ووصفهم بعدها بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾[1]، لأنهم افتروا على الله ما ليس في كتابه، بيد أن الآية الثانية في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم لم يتعلقوا بما يهديهم، وليسوا أصحاب كتاب أصلاً، وإنما هم ضالّون بعيدون عن الهداية[2] بما يدل عليه سياق الآيات قبلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[3]، وبعدها قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾[4]، ثم قال على لسان الشيطان نفسه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾[5]، وثمة ملحظ جميل ذكره الفخر الرازي في الربط بين هاتين الآيتين في سورة النساء بقصد التأكيد فقال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: لأنه تعالى لم يعد آية آية من آيات الوعيد في القرآن الكريم بلفظ واحد مرتين ترجيحاً للوعد على الوعيد[6]، مع خلاء السياق من تأكيد جسامة الموقف وما يتصل به من جسامة العاقبة.

وآخر ما نعرض له من أمثلة استبدال التركيب الفعلي الماضوي بنظيره قوله تعالى في سورة فصلت[7]: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا

(1) سورة النساء، الآية: 50.
(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 79 - 80؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 55؛ ملاك التأويل: (1/ 347 - 348)؛ البرهان في علوم القرآن: (1/ 87)؛ الإتقان: (3/ 351)؛ معترك الأقران: (1/ 45)؛ أحمد أحمد بدوي - من بلاغة القرآن، القاهرة، 1950 م: 85؛ من أسرار التعبير في القرآن، ص: 152 - 153.
(3) سورة النساء، الآية: 115.
(4) سورة النساء، الآية: 117.
(5) سورة النساء، الآية: 119.
(6) ينظر: التفسير الكبير: 11/ 45.
(7) سورة فصلت، الآية: 50.

عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله في سورة الكهف[1]: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾، وذلك بين: ﴿رُّدِدتُّ﴾ و﴿رُجِعْتُ﴾، والجديد في وصف هذين التركيبين أن فعليهما مبنيان للمجهول، والضمير فيهما نائب عن الفاعل، وقد سبق التركيب في آية الكهف ضربُ الله مثلاً بجنتين في الدنيا جُعلتا لرجل ظلم نفسه، فلم يشكر الله على النعمة التي أنعمها عليه، وظنّ أنها لا تفنى أبداً، وأنكر قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾[3]، فالجنتان الموصوفتان قد حوتا مراده، واشتملتا على كل ما أراده من النعيم الذي زعم لنفسه أنه دائم أبداً، ولمّا كان الرد عن الشيء لا يخلو من كراهة المردود لطبيعة هذا الفعل الذي يقع خلاف رغبته، كنقل الرجل المذكور عن جنته الزاهية إلى ما زعم لنفسه أنه سيكون أحسن منها حين يُردّ إلى ربه فإن استعمال جذر الردّ يلفتنا إلى أنّ الرجل كان يبطن في سرّه تفضيلاً للأولى على الثانية مع أنه قال ما قال في مقام تسليته لنفسه، ولم يتقدم آية «فصلت» مثل ما تقدم آية «الكهف»، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ

(1) سورة الكهف، الآيتان: 35 - 36.
(2) سورة الكهف، الآيات: 32 - 34.
(3) سورة الكهف، الآيتان 35 - 36.
(4) سورة فصلت، الآية: 49.

غَلِيظٍ﴾[1]، وليس في «رجع» من كراهة الإرجاع[2] ما في «ردّ» من كراهة الرد، لأنه لم يتضمن أكثر من ذكرٍ مجردٍ لحدث الإرجاع من غير أيّ ظل معنوي كالظل النفسي الذي لمحناه في استعمال جذر الرد المقتضي كراهة الحدث بعد بوار الجنة الدنيوية التي فضّلها المردود على الجنة التي سيستقبلها كما زعم عند ربه لو ردّ إليه.

الفعلي الماضوي ← الفعلي الحاضري:

ومثلته أقل من أمثلة النمط الأول في القرآن الكريم، قال تعالى في سورة فاطر[3]: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، وقال في سورة آل عمران[4]: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ و﴿يُكَذِّبُوكَ﴾. وقد وردت آية فاطر في سياق الكلام على الهداية والاستجابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[5]، ثم قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، فالمقام مقام الهداية والاستجابة، وتبليغ الرسالة والدعوة، وقد أتى بالفعل المضارع للدلالة على ضرورة استمرار التبليغ والإنذار والدعوة إلى الهداية أبداً. والمقام في آية آل عمران في استذكار تاريخي لحادثة معينة بقوله تعالى:

---

(1) سورة فصلت، الآية: 50.
(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 282؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 133.
(3) سورة فاطر، الآية: 25.
(4) سورة آل عمران، الآية: 184.
(5) سورة فاطر، الآيات: 18 - 24.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[1] مما لا يناسبه غير التعبير بالفعل الماضي[2].

ونظير آية فاطر قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[3] في سياق الهداية والاستجابة والتبليغ، وقد قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[4]، وقال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[5]، وقد أتى بالفعل المضارع للسبب الذي ذكرناه آنفاً، فضلاً عن بناء الكلام في آية آل عمران على الاختصار، والاكتفاء بالقليل عن الكثير، على خلاف ذلك في آية فاطر[6]، ومما يدل على ذلك أمور هي:

أولاً: بناء الفعل الماضي للمجهول في آية آل عمران: ﴿كُذِّبَ﴾ وللمعلوم في آية فاطر: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مما اقتضى التصريح بالفاعل وإطالة العبارة، وقد وقعت هذه المفارقة أيضاً في ﴿جَآءُو﴾ في آل عمران، و﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ في فاطر.

ثانياً: ذكر الباء مع كل معطوف في آية فاطر: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ وحذفها في آل عمران: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، وربما كان التحول من

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 183 - 184.
(2) ينظر: التعبير القرآني، ص: 143.
(3) سورة فاطر، الآية: 4.
(4) سورة فاطر، الآية: 3.
(5) سورة فاطر، الآيتان: 5 - 6.
(6) ينظر: درة التنزيل، ص: 75.

المضي إلى الحضور بما اقتضاه من الإتيان بحرف المضارعة في آية فاطر دليلاً آخر على الظاهرة التعبيرية المشار إليها أيضاً.

ومن استبدال التركيب الفعلي الماضوي بالمستقبلي الذي هو نمط معروف من الحاضري في توجيهات النحاة، قوله تعالى في سورة الأعراف[1]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله في سورة الفرقان[2]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿أَرْسَلَ﴾ و﴿يُرْسِلُ﴾، والمقام في آية الأعراف دعاء وتضرع، وخوف وطمع، وقد قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3]، فكان في هاتين الآيتين بعث على الدعاء والتضرع، وتعليق للخوف والطمع بالرحمة، والتعبيرُ بالفعل المضارع كما أسلفنا دالّ على ضرورة استمرار ذلك وتجدده في المستقبل دائماً، مع ما في هذه الآية من مقابلة بين صورتي إحياء البلد الميت بالماء، وإحياء البشر بعد موتهم، ومن المعلوم أن إخراج الموتى غير حاصل في الماضي، ولكنه سيحصل في المستقبل.

وقد عبّر في سورة الفرقان بالماضي: ﴿أَرْسَلَ﴾، ليتشاكل مع السياق الذي تضمن سرداً للنعم التي كان الله تعالى قد أنعمها على عباده، ومنها إرسال الرياح[4]، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

(1) سورة الأعراف، الآية: 57.
(2) سورة الفرقان، الآية: 48.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 55 - 56.
(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 148؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 81.

﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾[1]، فكل ذلك قد تحقق في الماضي مع ديمومة وقوعه في الحاضر والمستقبل، على وفق ما جرى عليه التعبير في سورة الأعراف.

الفعلي الحاضري ← الفعلي الحاضري:

قال تعالى في سورة الأنعام[2]: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾، فقد قال: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿تَتَّقُونَ﴾ في خواتم الآيات الثلاث التي تضمنت الوصايا الأخلاقية العشر:

- عدم الإشراك بالله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.
- الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.
- النهي عن قتل الأولاد: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.
- عدم التقرب من الفواحش: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.
- النهي عن قتل النفس إلّا بالحق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.
- النهي عن التصرف في مال اليتيم إلّا فيما ينفعه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

---

(1) سورة الفرقان، الآيات: 45 - 47.

(2) سورة الأنعام، الآيات: 151 - 153.

- الأمر بالإيفاء في الكيل والميزان، لأن نقصهما يؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

- العدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

- الوفاء بالعهد الذي أخذه الله على الناس جميعاً بأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه، وأن يقوموا بما تعاقدوا عليه والتزموا به على أساس من حكمه تعالى وشرعه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

- اتّباع صراطه المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾.

ولدى تمثل هذا النسق سنرى أن الوصايا الخمس الأولى قد مهّدت لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لأن عدم العقل وما يتصل به من غلبة الهوى هو الذي يحمل على تركها، وكل من المعاصي الخمس التي جاء التحذير منها بالوصايا المذكورة قبيح في العقل، محتاج في منع النفس عنه إلى زاجر من العقل نفسه، ولهذا جاءت الخاتمة بالتأكيد على فاعلية العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان بوصفه في أشرف سجاياه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أما الوصايا الأربع الأخرى فإن المعصية فيها من الأمور الخفية الغامضة التي لا بد فيها من الاجتهاد والفكر، حتى يقف الإنسان إلى موضع الاعتدال في التمثل بالوصايا الواردة بشأنها، ولهذا جاءت الخاتمة تأكيداً على فاعلية التذكر، بوصفه من نتاج العقل الإنساني أيضاً، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. في حين إنّ الوصية العاشرة وهي الحث على اتباع الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا انحراف، لأنه شرع الله، قد ختمت بالإشارة إلى فاعلية التقوى التعبدية التي ترسم طريق العبد إلى حيث ينجي نفسه من غضب الله ومن عقابه[1]، لأن ذلك هو غرض الحياة كلها في أطرها الاعتقادية السليمة التي لا تتأسس على انحراف في اتجاه الإنسان إلى ربه الذي أنشأه وألهمه العقل والقدرة

(1) ينظر: درة التنزيل، ص: 137 - 138؛ ملاك التأويل: (1/ 480 - 481)؛ الإتقان: (3/ 348 - 349)؛ معترك الأقران: (1/ 42 - 43).

على التذكر ومحاسبة النفس في كل مواقف الحاضر والمستقبل مما تستدعي الصيغة المضارعية التي تؤكد على ديمومة فاعلية العقل والتذكر والتقوى في صياغة الحياة من التدمير الذي يمكن أن ينتج عن الخطل والنسيان وفساد الاعتقاد لقلة التقوى أو انعدامها، كما جرى التعبير بالصيغة المضارعية: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ﴾ في آيتين متعاقبتين أيضاً في سورة الأنعام[1]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾، وكان الاختتام بجذر العلم في الآية الأولى لأن العلم بنجوم السماء، وتعيين الكواكب، واشتراكها مع الشمس والقمر في التنقل من منازلها، وحساب النجوم والاهتداء بها، إنما يختصّ بها أولئك الذين يدركون منافع هذه النجوم وفوائدها، ويستدلون بها على معرفة الصانع الحكيم[2]، كما أن الاختتام بجذر الفقه في الآية الثانية لأن إنشاء الخلائق من نفس واحدة، وتصريفهم في أحوال كثيرة، كنقلهم من الأصلاب إلى الأرحام، ثم إلى الحياة الدنيا، ثم إلى البعث والنشر، مما يستدعي مزيد فكر وتأمل وتدقيق نظر، والفقه هو الفطنة[3]، والتوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، وهو بهذا أخصّ من العلم[4]، لأنه يستدعي فهم الأشياء الدقيقة بالتدبر والتأمل[5]، بخلاف العلم الذي يمكن أن يُكتسب أحياناً بأدنى ملاحظة أو سماع أو نظر سريع.

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 97 - 98.

(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 125 - 126؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 71 - 72؛ ملاك التأويل: (1/ 462 - 464)؛ البحر المحيط: (4/ 188)؛ الإتقان: (3/ 349).

(3) المخصص: (3/ 33) مادة: الفقه.

(4) المفردات في غريب القرآن، ص: 384.

(5) ينظر: درة التنزيل، ص: 125 - 126؛ الكشاف: (2/ 39)؛ التفسير الكبير: (13/ 104)؛ أسرار التكرار في القرآن: (71 - 72)؛ ملاك التأويل: (1/ 462 - 464)؛ البحر المحيط: (4/ 188)؛ الإتقان: (3/ 349)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (3/ 166)؛ فتح القدير: (2/ 144).

ومن المناسب أن نتجه بنظرنا ههنا إلى قوله تعالى في سورة البقرة[1]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وقوله في سورة المائدة[2]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، لنرى وجه الاستبدال الذي وقع بين: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾ في الآيتين، والعلم كما يقال أبلغ درجة من العقل، لأنه إدراك الشيء بحقيقته[3]، والعاقل هو الذي يحبس نفسه، ويمنعها عن هواها، وإنما سُمي العقل لأنه يعقل صاحبه عمّا تدعو إليه الشهوات، أي: يحبسه[4]، ولهذا جاز وصف الله تعالى بالعلم، ولم يجز وصفه بالعقل، فإذا كانت رتبة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أعلى من رتبة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فقد أخبر الله عن الكفار في سورة المائدة بأنهم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فادّعوا النهاية بقولهم: ﴿حَسْبُنَا﴾ الذي يُستعمل فيما يكفي في بابه، ويغني عن غيره، فنفى ذلك بالعلم وهو النهاية، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، بيد أنه تعالى لم يخبر في آية البقرة عن تناهيهم في معرفة ما أتبعوا فيه آباءهم، ولم يدّعوا أن ما ألفوا عليه آباءهم كان حسبهم وكافيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، فلذلك نفي ادعاءهم بما هو دون العلم منزلة، وهو العقل[5]، فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، ومثل هذه الفروق مما يعين المفسّرَ والدارسَ على فهم المقاصد القرآنية بدقة فيما يبدو في ظاهره مؤتلفاً غير مختلف ولكنه في حقيقته كبير الاختلاف، كاختلاف الإيمان عن التذكر في آخر قوله تعالى في آيتين متعاقبتين

(1) سورة البقرة، الآية: 170.
(2) سورة المائدة، الآية: 104.
(3) المفردات في غريب القرآن، ص: 343.
(4) لسان العرب: (11/ 458 - 459) مادة: عقل.
(5) ينظر: درة التنزيل، ص: 39 - 40؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 38.

في سورة الحاقة[1]: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وإنما نفيت الشعرية عن القرآن وقرنت بالإيمان لأنها ظاهرة واضحة، لا يخفى على من له أدنى معرفة، ولا ينكرها إلّا معاند، فمن قال: إنّ القرآن شعر فقد كفر، في حين إنّ نفي السجع الكهاني عنه محتاج إلى تذكّر وتدبّر، لأن كلّاً منهما نثر، فليست مخالفة القرآن له في وضوحها لكل أحدٍ كمخالفته الشعر، وإنما تظهر بتدبير نظمه، وما يتضمنه من الفصاحة والبلاغة، ومعانيه المنافية لطريقة الكهنة[2]، فكان الاختتام بالإشارة إلى ضرورة تذكر هذه القضية التي لا تدخل مدركها في الدائرة الكفرية إلّا بعد التأكد من أسرارها والجنوح عنها إلى الاعتقاد الفاسد بأن القرآن شبيه بسجع الكهان،مما نفاه الباريء ﷻ نفياً قاطعاً كما نفى الشعرية أيضاً.

ومن أمثلة استبدال التراكيب الفعلية الحاضرية الكثيرة في القرآن بما يناظرها في التشكيل النحوي ويطابقها أو يفارقها في الدلالة قوله تعالى في سورة الأعراف[3]: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله في سورة يونس[4]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ وهو استبدال في نوع ضميمة المضارعة في ﴿يَطْبَعُ﴾، ﴿نَطْبَعُ﴾ مع إظهار الفاعل في آية الأعراف وإضماره في آية يونس، والطبع هو: الختم، «يُقال: طبع الله على قلوب الكافرين... أي: ختم: فلا يعي، وغطّى فلا يُوفّق لخير»[5]، وقد بُنيت آية

(1) سورة الحاقة، الآيتان: 41 - 42.
(2) ينظر: الإتقان: (3/ 349 - 350) معترك الأقران: (1/ 43 - 44)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (9/ 27).
(3) سورة الأعراف، الآية: 101.
(4) سورة يونس، الآية: 74.
(5) لسان العرب: (8/ 232) مادة: طبع.

الأعراف على ما تقدمها من الآيات التي انتقل فيها من الإضمار إلى الإظهار ومن الإظهار إلى الإضمار في إخبار الله ﷻ عن نفسه، كالإضمار في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾[1]، والإظهار في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2]، والإضمار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3]، ثم العودة إلى ذكر الطبع والطابع مُظهراً في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مراعاة لما بنيت عليه الآيات المقدمة من نسق الانتقال الذي أشرنا إليه، في حين أن إضمار الفاعل في آية يونس مبنيّ على ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهو إضمارٌ لم يداخله أي إظهار للفاعل[4]، كما حصل في سياق آيات الأعراف، فقد قال تعالى قبل آية يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[5]، وقال في مفتتحها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[6] بلزوم الإضمار وحده لتوحيد صورة الفاعلية من حيث شكلها النحوي المشار إليه على خلاف ما جرى في السورة الأخرى، مما لا يستبعد أن يكون مقصداً نحوياً في التعبير القرآني وملحظاً من ملاحظ إعجازه التي لا تكتشف بغير النظر والتأمل الدقيق، وهي جدُّ كثير، منها في إطار ما نعني به من استبدال التركيب الفعلي

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 97 - 98.
(2) سورة الأعراف، الآية: 99.
(3) سورة الأعراف، الآية: 100.
(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 166 - 167؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 88؛ ملاك التأويل: (1/ 558).
(5) سورة يونس، الآية: 73.
(6) سورة يونس، الآية: 75.

الحاضري بنظيره قوله تعالى في سورة الروم[1]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله في سورة الزمر[2]: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك بين: ﴿يَرَوْا﴾ و﴿يَعْلَمُوا﴾ المنفيين. وقد جاءت آية الروم بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[3]، والمعنى: إذا أنعمنا عليهم نعمةً تُرى عليهم، من مطر، أو سعة، أو عافية، فرحوا بها، وإن أصابتهم عقوبةٌ، وبلاءٌ، من جدب، أو ضيق، أو مرض، قنطوا من الرحمة، وفعلوا فعل اليائس من أن يشمله الله بنعمةٍ إن تاب من المعاصي، ورجع إلى الله[4]، وهاتان الحالتان مرئيتان عندهم، ومشاهدتان «فإن من بُسط له الرزق رؤي مالُه ولم يخفَ على المشاهد حالُه، ومن انقلب أمره، وانقطع خيره، أدركت العين منه خلاف ما كان قبل»[5].

فلما جاءت هذه الآية بعد ذكر النعمة، وحال الإنسان إذا سلبت منه، والنعمةُ مرئية، ناسب هذا المكان الإتيان بجذر الرؤية الذي جرى استعماله في سورة الروم سبع مرات[6] بما يشبه أن يكون مقصداً إعجازياً من مقاصد العبارة القرآنية، كما جرى استعمال جذر العلم في سورة الزمر إحدى عشرة مرة[7] ومنها الآية التي نحن بصددها، في حين وقع استعمال جذر الرؤية في سورة الزمر ست مرات[8] ووقع استعمال جذر العلم في سورة الروم عشر مرات[9]، لإقرار النسق اللغوي

(1) سورة الروم، الآية: 37.
(2) سورة الزمر، الآية: 52.
(3) سورة الروم، الآية: 36.
(4) ينظر: الكشاف: 3/ 223.
(5) درة التنزيل: 371.
(6) الآيات: 9، 24، 37، 42، 48، 50، 51.
(7) الآيتان: 7، 9 في موضعين، 26، 29، 39، 46، 49 في موضعين، 52، 70.
(8) الآيات: 21، 38، 58، 60، 68، 75.
(9) الآيات: 6، 7، 22، 29، 30، 34، 54، 56 في موضعين، 59.

الغالب في الاستعمال على نظيره في كل من السورتين، وقد سبق آية الزمر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فلما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾، أي: على علم من الله بفضلي واستحقاقي[2] ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ناسبه ذلك القول: [أَلَمْ يَعْلَمُوا] مقابل ادعائهم العلم بقول الكافر منهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ كمناسبة التعبير بالرؤية في سورة الروم، فضلاً عن ملاحظة طريقة أخرى في تعبير كل من السورتين، فقد ذكر ﷻ فاقدي البصر في سورة الروم، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[3]، وذكر فاقدي العلم في سورة الزمر[4]، فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[5] لتحقيق وحدة النسق الغالب كما أسلفنا على نظيره في سياق السورتين، ولكي يتسق ما نعرضه من أمثلة استبدال التركيب الفعلي الحاضري بنظيره مع سعة اتساع هذه الظاهرة في النص القرآني، نذكر في ذلك قوله تعالى في سورة يونس[6]: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقوله في سورة الأنعام[7]: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقد استبدل فيه: ﴿يَمْسَسْكَ﴾ بـ ﴿يُرِدْكَ﴾ في ذكر الخير، وقد أتت آية يونس بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[8]، وهذا إخبار منه ﷻ بجري الخلائق على ما قدّر لهم أولاً،

(1) سورة الزمر، الآية: 49.
(2) الجامع لأحكام القرآن: (15/ 266).
(3) سورة الروم، الآية: 53.
(4) ينظر: التعبير القرآني، ص: 161.
(5) سورة الزمر، الآية: 64.
(6) سورة يونس، الآية: 107.
(7) سورة الأنعام، الآية: 17.
(8) سورة يونس، الآية: 96.

وسبق به حكمه تعالى ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1]، وهذا تأكيد للأمر المذكور، وإن ذلك لا يرده، ولا يعارضه معارض، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، ثم قال تعالى: بعد ذلك: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وإصابته ﷻ من يشاء من عباده بالخير هو المراد بقوله في آية الأنعام: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، فالمسّ في اللغة هو اللّمس[2]، واستعمل هنا في الإصابة مجازاً، أي: وإن يصبك بخير، أو: ينلك خيراً[3]. وبهذا يكون قد اجتمع الأمران في آية يونس معاً، وكأنه قد قيل: وإن يمسسك بخير ويردك به فلا رادّ لما أصابك به، وأراده لك، وفي هذا من التأكيد ما ليس في آية الأنعام، وذلك ليطابق هذا التأكيد ما تقدم من قوله في سورة يونس[4]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[5]، مما لم يتقدم مثله في آية الأنعام[6] التي اكتفي فيها بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويفهم من هذا أنه تعالى قد أكد ذكر الخير في آية يونس أكثر مما في آية الأنعام، فذكر إرادة العبد به، وبأنه فضل لا رادّ له، وأنه يصيب به من يشاء من عباده من رحمته بهم وغفرانه لما يبدر منهم مقابل إشارته في سورة الأنعام إلى أنه يمسسهم بالخير من مصدر قدرته القادرة على كل شيء، ومثل هذه الفروق الدلالية بين التراكيب ميدان كبير لعمل النحوي والمفسر من حيث بريان الوجوه التي تؤكد السمة الإعجازية في العبارة القرآنية، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف[7]: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ

(1) سورة يونس، الآية: 99.
(2) لسان العرب: (6/ 217). مادة: مسس،؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 467.
(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 113؛ الجامع لأحكام القرآن: (6/ 398)؛ (6/ 398)؛ (8/ 388)؛ ملاك التأويل: (1/ 430).
(4) سورة يونس، الآية: 96.
(5) سورة يونس، الآية: 99.
(6) ينظر: الكشاف: (2/ 256)؛ ملاك التأويل: (1/ 426 - 430).
(7) سورة الأعراف، الآية: 39.

لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وقوله في سورة الأنفال[1]: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فاستبدل ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بـ﴿تَكْسِبُونَ﴾ تأسيساً على وعيده ﷻ بالعذاب، وقد سوّغ هذا الاستبدال اختلاف المقام في آية الأعراف عنه في آية الأنفال، فسياق آية الأعراف في أمم متفرقة، وأصناف من المكذبين، تنوع كفرهم وتكذيبهم، وارتكبوا المعاصي، وافتروا على الله الكذب، فقال ﷻ في حقهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾[2]، وقال: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾[3]، وقد ذكر الكسب إيماءاً إلى تنوع ما اجترحوه من المخالفات والذنوب والضلالات، بيد أن سياق آية الأنفال في كفار قريش[4] وهم عبدة أوثان لم تتكرر فيهم الرسل، ولم يكن منهم غير الكفر والتكذيب بالرسول ﷺ[5] في رسالته إليهم، فأوعدهم ﷻ بالعذاب على هذا النمط المعيّن الواحد من الفعل الإنساني، ومن هنا يكون مأتى الفرق بين دلالة التركيبين منبعثاً من الوحدة والتنوع في طبيعة ما اقترفه المذكورون في الآيتين من الذنوب والمعاصي وهم في حالتهم الأولى متعددون اتصف عصيانهم بالتنوع من زاوية كثرتهم واختلاف أحوالهم وظروفهم وأزمنتهم، وفي حالتهم الثانية فئة واحدة من الناس كذبت رسولها كما كُذّب أولئك الرسل الكثر الذين أرسلوا إليهم، ولكنهم لم يُعرفوا بغير الكفر الذي

(1) سورة الأنفال، الآية: 35.
(2) سورة الأعراف، الآية: 37.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 38 - 39.
(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (7/ 400).
(5) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 494 - 495).

انسجمت معه وانطلقت منه كل ألوان المعصية التي ذُكرت عنهم كإيذاء النبي، ومحاولة قتله، والاعتداء على أصحابه، ومحاصرتهم، وما شاكل كل ذلك مما سجلته التواريخ.

ونخلص من هذا إلى أن استبدال التركيب بالتركيب آتٍ من زاويةٍ ذات بُعدٍ عميق، يضرب في الاجتماع والتاريخ والاعتقاد، وفي غير ذلك مما لا يُلمح إلّا بالتأمل وتدقيق النظر. وربما سأل السائل: وما الفرق بين: ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ و﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ في قوله تعالى في سورة الإسراء[1]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، وقوله في سورة الأنعام[2]: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟، فيجاب بأن رزق الأبناء قد قُدّم في آية الإسراء على رزق الآباء، لأن الخطاب هنا للأغنياء، بدليل قوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، فإنه لا يخشى الفقر إلّا مَنْ كانَ غَنِيّاً، إذ الفقير منغمس في الفقر، ولفظ الخشية يوحي بالخوف الآتي مستقبلاً، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الآباء برزق أبنائهم إشعاراً لهم بالطمأنينة والارتياح إلى أن أبناءهم لن يشقّوا عليهم بأرزاقهم لأنهم يأتون مع أرزاقهم بقدر إلٰهي مقدور، وقد قدّم رزق الآباء في آية الأنعام على رزق الأبناء، لأن الخطاب للفقراء، وذلك أن العرب كانوا يقتلون أولادهم من إملاقهم وافتقارهم واحتياجهم[3]، وكان الواحد منهم محتاجاً إلى الرزق العاجل للقيام بالإنفاق على أولاده، لأن الآباء في مثل هذه الحالة هم المكلفون بالسعي والإنفاق، فكان مناسباً أن يكون الخطاب بتقديم رزق الآباء، لإفادة أنهم

(1) سورة الإسراء، الآية: 31.

(2) سورة الأنعام، الآية: 151.

(3) ينظر: مجاز القرآن: 1/ 208، 375؛ جامع البيان في تفسير القرآن: 8/ 60، 15/ 57 - 58.

أصحاب العمل، وبرزقهم يرزق الأولاد[1]، ونخرج من هذه المقابلة بأنه ﷺ قد قدّم الأهم في الحالين، تمشياً مع أساليب العرب في تقديم ذلك في الكلام، قال سيبويه: «كأنهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى»[2]، فضلاً عن وضعه تعالى كل آية في سياقها المناسب، فإن قوله في سورة الإسراء يخاطب الموسرين الأغنياء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ تابع لقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[3]، والمأمور بعدم التبذير هو الغني، لأن الفقير ليس عنده ما يبذره، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[4] لا يمكن أن يتوجه به إلى الفقير دون الغني، لأن الفقير لا يتمكن من أن يبسط يده كل البسط[5]، فكان مناسباً أن يخاطب الأغنياء بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ إشعاراً بالطمأنينة كما أسلفنا للقادم في المستقبل، وهذا الاتجاه في التحليل الدلالي للعبارة القرآنية كما أفرغت في قالبها التركيبي يفضي بدارسها إلى الأسرار التي تحقق إعجازها على كل مستوى، لأن استبدال الأداة بالأداة والصيغة بالصيغة لا يقومان في الكشف عن هذه الأسرار لاستبدال التركيب بالتركيب، لتفاوت رقعة المستخلص الدلالي من كل وجه من وجوه هذه الاستبدالات، بحيث يقرّ الفهم عن أن سعة المفهوم تترتب على سعة العبارة من لدن الأداة حتى التركيب، مما ينبني عليه تفاوت في تحقيق الملامح والمستويات الإعجازية للعبارة في كل بؤرها اللفظية ومساحاتها اللغوية، وهي تأتي بأجلى صورها في استبدالات التراكيب الفعلية الحاضرية، لأن امتداد دلالاتها في الزمان يمنحها امتيازاً معنوياً على

(1) ينظر: درة التنزيل، ص: 136؛ ملاك التأويل: (1/ 479 - 480)؛ الإتقان: (3/ 395)؛ معترك الأقران: (1/ 93)؛ من بلاغة القرآن، ص: 116 - 117؛ التعبير الفني في القرآن، ص: 190 - 191؛ من أسرار التعبير في القرآن، ص: 103 - 105؛ من بلاغة النظم العربي، ص: 282.

(2) الكتاب: (1/ 34)؛ وينظر: دلائل الإعجاز، ص: 84.

(3) سورة الإسراء، الآية: 26.

(4) سورة الإسراء، الآية: 29.

(5) التعبير القرآني، ص: 246 - 247.

نظائرها من التراكيب الفعلية الماضوية المنقطعة والاسمية القليلة التي سنعنى بها فيما نستقبل، كما يستقر في بنى الصيغ الفعلية نفسها من القدرة على تحمل المعاني وتشكيلها والاتجاه بها إلى مقاصد مستفادة من الضمائم السياقية التي ترتبط بها. ومن الأمثلة التي نستكمل بها دراستنا لاستبدالات التراكيب الفعلية الحاضرية بنظائرها في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الزخرف[1]: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وقوله في سورة الجاثية[2]: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين ﴿يَظُنُّونَ﴾ و﴿يَخْرُصُونَ﴾، وآية الزخرف واردة في سياق الإخبار عن المشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]، فقد قالوا: الملائكة بنات الله، وأن الله تعالى أراد أن يعبدوهم، وليس قولهم هذا عن علم، فأبطل ادعاءهم وحكم عليهم ﷻ بالخَرس وهو الكذب[4]، بيد أن آية الجاثية خبر عن الكفار الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، وخلطوا في قولهم هذا الصدقَ بالظن الكاذب، لأن قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ صدق، وقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ظن كاذب في حقيقة البعث بعد الموت وحقيقة الباعث، والظن ههنا شك[5]، وحيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بألسنتهم[6].

وقال تعالى في سورة يونس[7]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟

(1) سورة الزخرف، الآية: 20.
(2) سورة الجاثية، الآية: 24.
(3) سورة الزخرف، الآيتان: 19 - 20.
(4) مجاز القرآن: (1/ 206)؛ لسان العرب: 7/ 21 مادة: خرص.
(5) تهذيب اللغة: (14/ 362) مادة: ظن.
(6) جامع البيان في تفسير القرآن: (25/ 93).
(7) سورة يونس، الآية: 42.

لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال فيها أيضاً[1]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿يَنظُرُ﴾ و﴿يَسْتَمِعُونَ﴾، وإنما جُمع المستمعون في الآية الأولى لأنهم أكثر من الناظرين على وجه العموم، وذلك «بناءاً على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب»[2]، وأفرد النّظّارة حملاً على اللفظ لأنهم لم يكثروا كثرة المستمعة[3]، مع احتمال الجمع والإفراد بالضميمة السياقية (مَنْ) الموصولة، واحتمال أن يكون الجمع والإفراد قد وقعا لسبب آخر غير ما ذكرنا، لأن التأثير بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع، لا بحسب الرؤية، فأفرد النظر لأن رؤية النبي ﷺ واحدة، لا تختلف عند الرائين، وجمع الاستماع لاختلاف أثره من شخص لآخر[4]، وقد أفرد لفظ الاستماع في قوله تعالى في سورة الأنعام[5]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا . . .﴾ وقوله في سورة محمد[6]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا . . .﴾، لأن آية الأنعام نزلت في بضعة رجال من قريش، هم: أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل[7]، فوحّد الاستماع هنا لقلّة المستمعين قياساً بجمع الكفار الذين عنتهم الآية الكريمة في سورة يونس، والمنافقون الموماً إليهم في آية سورة محمد قلّة كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ في المدينة، فيسمعون كلامه ولا يلقون له بالاً[8]، وقلتهم هذه مقيسة بمجموع ما كان يحيط به من الكفار يومئذٍ. والمقصود من آيتي سورة

(1) سورة يونس، الآية: 43.
(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (4/ 148).
(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 103.
(4) ينظر: التعبير القرآني، ص: 46.
(5) سورة الأنعام، الآية: 25.
(6) سورة محمد، الآية: 16.
(7) الكشاف: (2/ 11).
(8) ينظر: الكشاف: (3/ 534).

يونس إعلام الرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار قد بلغوا في كفرهم وعنادهم وعداوتهم له والمسلمين حدّاً يصعب فيه هدايتهم، لأن الأصمّ الأحمق والأعمى الفاقد للبصيرة لا يستطيعان الوقوف على محاسن الكلام، واكتشاف ما ينطوي عليه من الإعجاز، ولا يمكنهما أن يرَيا ما أجرى الله على يدي رسوله من الخوارق، ولهذا أبدت الآيتان اليأس من هدايتهما[1].

وقد ذكر ابن قتيبة أن في الآيتين دليلاً على فضل السمع على البصر، لأنه «جعل مع الصمم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمي إلّا فقدان النظر»[2]، ولا تفضيل للسمع على البصر في قوله تعالى في سورة القصص[3]: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً[4]: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وإنما وقع الاستبدال لمراعاة الظرف الذي لا يناسبه إلّا تخصيص السمع أو البصر به، فالليل في الآية الأولى ظرف مظلم، لا ينفذ فيه البصر، فاقتضت بلاغة القرآن الكريم أن يقال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ للمناسبة الكاملة بين الحاسة والوقت المظلم الذي لا يقع فيه الإبصار، بخلاف النهار في الآية الثانية، فهو ظرف مضيء، ينفذ فيه البصر، يناسبه القول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5]، ومثل هذه المراعاة من الدقائق الإعجازية التي لا سبيل إلى الغفلة عنها لدى تمثل العبارة القرآنية، ومنها ذلك الفرق بين التعدي والتقرب في قوله تعالى في سورة البقرة[6]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ

(1) البحر المحيط: (5/ 161)؛ التفسير الكبير: (17/ 100 - 101).
(2) تأويل مشكل القرآن، ص: 7.
(3) سورة القصص، الآية: 71.
(4) سورة القصص، الآية: 72.
(5) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 161 - 162؛ البرهان في علوم القرآن: (1/ 82)؛ عبد العزيز سيّد الأهل - من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، القاهرة، 1980 م، ص: 134.
(6) سورة البقرة، الآية: 187.

ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً[1]: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فقد ذكر الحدود في الأولى وحظر التقرب منها، وذكرها في الثانية وحظر التعدي عليها، وإنما كان الحظر الأول لأنه تعالى قد نهى عن مباشرة النساء في أثناء الاعتكاف في المساجد، والنهي عن قربان الشيء أبلغ من النهي عن فعله، ويظهر ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة أيضاً[2]: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، بيد أن الحظر في الآية الثانية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ قد جاء بعد بيان عدد ألفاظ الطلاق في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، فناسب ذلك النهي عن التعدي والتجاوز[3] على الحد الذي وقع الإلزام به.

فعلي طلبي ← فعلي طلبي:

قال تعالى في سورة الأعراف[4]: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ وقال في سورة الشعراء[5]: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: [ابْعَثْ] و[أَرْسِلْ] الفعلين الطلبيين اللذين يفيدان وقوع حدثهما

(1) سورة البقرة، الآية: 229.
(2) سورة البقرة، الآية: 222.
(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 41؛ ملاك التأويل: (1/ 258 - 260)؛ البحر المحيط: (2/ 54)؛ الإتقان: (3/ 394)؛ معترك الأقران: (1/ 93)؛ تبيان البيان في مشكلات القرآن، ص: 254.
(4) سورة الأعراف، الآية: 111.
(5) سورة الشعراء، الآية: 36.

غبّ انتهاء الأمر أو بعيده، وقد اقتضى سياق الآيات في سورة الشعراء ذكر فعل البعث دون الإرسال، لأن البعث يتضمن معناه ويربي عليه بمعنى الإثارة والإنهاض والتهييج[1]، قال الراغب (ت 502 هـ): إنّ «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث»[2]. والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر، بل يكون بإنهاض شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، ومعناه: «انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره»[4]، ولمّا كان المقام في السورة المذكورة مقام زيادة تحدّ، وقوة، ومواجهة، كما هو ظاهر في سياق آياتها، قال ملأ فرعون: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، وهو مقام يؤكد سياق الآيات في السورة الأخرى أيضاً، بيد أن الملأ لم يكتفوا بطلب الإرسال بل طلبوا البعث فيما حكته عنهم آية الشعراء، فقد أرادوا أن ينهضوا من المجتمع حاشرين فضلاً عن الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة، وتهييج الناس على موسى، وهذا معنى لا يؤديه فعل الإرسال[5]، ومن الطريف أن نلحظ تكرار استعمال فعل الإرسال ومشتقاته في سورة الأعراف أكثر مما في سورة الشعراء، فقد ورد في الأعراف ثلاثين مرة[6]، وفي الشعراء سبع عشرة مرة[7]، ولا يخفى ما في هذا التباين من تأكيد طلب الإرسال في السياق

(1) ينظر: لسان العرب: (2/ 116 - 117) مادة: بعث.
(2) المفردات في غريب القرآن، ص: 52.
(3) سورة البقرة، الآية: 246.
(4) الكشاف: (1/ 378).
(5) التعبير القرآني، ص: 293.
(6) الآية: 6 في موضعين، 35، 37، 43، 53، 57، 59، 61، 62، 67، 68، 75 في موضعين، 77، 79، 87، 93، 94، 101، 104، 105، 111، 133، 134، 144، 157، 158 في موضعين، 162.
(7) الآيات: 13، 16، 17، 21، 27 في موضعين، 53، 105، 107، 123، 125، 141، 143، 160، 162، 176، 178.

الطويل لسورة الأعراف، وكأن قوة دلالة البعث على الإرسال وما يصحبه من معاني الإثارة والإنهاض والتهيج هو الذي يرفع العدد القليل من تكراره في سورة الشعراء إلى قوة الإرسال المؤكد عليه في السورة الأخرى، مما يمكن أن نعدّه ملحظاً إعجازياً لا يصل إليه المرء إلّا بالنظر والتأمل الطويل.

وقال تعالى في سورة الأنبياء[1]: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾. وقال في سورة «المؤمنون»[2]: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: [اتَّقُونِ] و[اعْبُدُونِ] مما يبدو في ظاهره الدلالي متماثلاً في دواعيه السياقية، ولكننا نلحظ ورود سياق الآيات في سورة الأنبياء في الإحسان والتفضل، واللطف والرحمة، فقد قال تعالى في قصة أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾[3] وقال في قصة زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[4]، وقال في قصة مريم: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[5]، وختم ذلك كله بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، فذكر العبادة المأمور بها كل من قصّ قصصهم، فناسب ورود أمره بالعبادة من رعاه بإحسانه ولطفه من المذكورين جميعاً، بيد أن آية المؤمنين قد جاءت عقب ذكر طوائف كثيرة من

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 52.
(3) سورة الأنبياء، الآيات: 83-86.
(4) سورة الأنبياء، الآيتان: 89 - 90.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 91.

الأمم العاصية التي أهلكت بكفرها، فقد قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾[3]، واستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[4]، وغير ذلك. فكان من المناسب أن يأتي الأمر بالتقوى في آية المؤمنين، بما فيه من التحذير والتخويف المتسق مع ذكر العقوبات والإهلاك[5]، وقد صاحب كلَّ ما ذكرناه ورودُ لفظ التقوى، وبنات جذره اللغوي من المشتقات لم يرد البتّة في سورة الأنبياء، لأنه غير مقتضى فيها بحاجات السياق إليه، بخلاف سورة المؤمنين[6]،فقد ورد فيها ذلك أربع مرات[7]، باقتضاء أحوال الأمم العاصية المهلكة للأمر بالتقوى، ويقابل هذا لفظ «العبادة» وما إليه من صيغ جذره اللغوي ثماني مرات في سورة الأنبياء[8]، وأربع مرات في سورة المؤمنون[9] وهذه المفارقة الإحصائية شبيهة الدلالة بما ذكرناه من مناسبة البعث والإرسال آنفاً لسياق السورة التي تضمنته، وعددناه ملحظاً إعجازياً جديراً بالتأمل.

التركيب الاسمي ← التركيب الاسمي:

وقد ذكرنا في موضع سابق أن هذا النمط من الاستبدال قليل[10] في القرآن

(1) سورة المؤمنون، الآية: 41.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 44.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 48.
(4) سورة المؤمنون، الآية: 54.
(5) ينظر: البحر المحيط: 6/ 409.
(6) ينظر: معترك الأقران: 3/ 94.
(7) سورة المؤمنون، الآيات: 23، 32، 52، 87.
(8) سورة الأنبياء، الآيات: 19، 25، 53، 73، 84، 92، 98، 106.
(9) سورة المؤمنون، الآيات: 23، 32، 47، 109.
(10)ينظر: الصفحة 157 من هذا الكتاب.

الكريم. قال تعالى في سورة النحل[1]: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال في سورة إبراهيم[2]: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقد وقع الاستبدال في آخر الفاصلتين بين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وجاء في تعليق الفخر الرازي على اختلاف هاتين الفاصلتين قوله: «كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان هما: كونك ظلوماً، كفّاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما: كوني غفوراً، رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إنْ كنت ظلوماً فأنا غفور، وإنْ كنتَ كفّاراً، فأنا رحيم، اعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلّا بالتوفير، ولا أجازي جفاءاً إلّا بالوفاء»[3]، لأن السياق يقتضي أن يختم كل من الآيتين بما ختمت به، ذلك أن آية النحل في سياق ذكر صفات الله، وتعداد نعمه، وآية إبراهيم في سياق وصف الإنسان، وذكر صلته بالله[4]، قال تعالى في سورة النحل[5]: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فذكر نفسه تعالى بالغفران والرحمة من صفاته، وذكر قدرته ونعمه على

(1) سورة النحل، الآية: 18.
(2) سورة إبراهيم، الآية: 34.
(3) التفسير الكبير: (19/ 130 - 131).
(4) ينظر: ملاك التأويل: (2/ 719 - 720)؛ البرهان في علوم القرآن: (1/ 86)؛ الإتقان: (3/ 350)؛ معترك الأقران: (1/ 44)؛ من بلاغة القرآن، ص: 84؛ التعبير الفني في القرآن، ص: 205؛ الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 223؛ من أسرار التعبير في القرآن، ص: 149 - 151.
(5) سورة النحل، الآيات: 5 - 7.
(6) سورة النحل، الآية: 17.

عباده الذين ذكرهم بعصيانهم في سورة إبراهيم[1]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾، ثم ختم هذا القول كلّه بما ذكره من ظلم الإنسان لنفسه، وكفره بالنعمة تحذيراً لعباده المؤمنين من الوقوع في ضلالة من يقع في مغبة هذا الذنب الكبير.

وقال تعالى في سورة يوسف[2]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة الأنعام[3]: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة الأعراف[4]: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فحصل الاستبدال بين التراكيب الاسمية: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ و﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ و﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وذلك بإضافة الدار إلى الآخرة في آية يوسف، ووصف الدار بالآخرة في الأخريين، وفي هذا الوصف مطابقة لما تقدم قبل كل منهما، فقد قال في آية الأنعام: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فجعل الدنيا صفة للحياة على غرار وصف الدار بالآخرة مع مراعاة التأكيد في السياقين باللام قبل الدار وبـ«ما وإلّا» في السياق الأول، كما قال في آية الأعراف: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ بعد قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 169] فجعل ﴿الْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 169] صفة للمشار إليه المحذوف، وهو الدار الدنيا، فشاكله أن يقول بعده:

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 28 - 31.
(2) سورة يوسف، الآية: 109.
(3) سورة الأنعام، الآية: 32.
(4) سورة الأعراف، الآية: 69.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾. أما الإضافة في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ فلم يتقدم عليها مثلُ ما تقدم قبل آيتي الأنعام والأعراف[1]، وما قبلها هو قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]، والساعة هي الساعة الآخرة، وهي القيامة، فلما ذُكرت الدار أضيفت إليها «فكأنه قال: ولدار الساعة الآخرة خير»[3]، وهذا على وفق ما يراه البصريون، لأنهم لا يجيزون إضافة الشيء إلى نفسه[4]، مما صحّ عند الكوفيين لدى اختلاف الاسمين، قال الفراء (ت 207هـ) «وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، وقد تضيف العرب الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[5]، والحقّ هو اليقين، ومثله: أتيتُك بارحة الأولى، وعامَ الأول، وليلة الأولى، ويوم الخميس»[6]، وفي قولهم هذا صحة ظاهرة، لأن عدم التأويل أسلم من التأويل، مع وجود ما يؤيد هذا اللون من الإضافة في القرآن الكريم وكلام العرب.

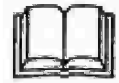

(1) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 449 - 450).
(2) سورة يوسف، الآية: 107.
(3) درة التنزيل، ص: 245؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 113.
(4) ينظر: الزجاج - إعراب القرآن المنسوب إليه: (1/ 286)؛ الإنصاف في مسائل الخلاف: (2/ 436 -438)؛ شرح المفصل: (3/ 10).
(5) سورة الواقعة، الآية: 95.
(6) الفرّاء - معاني القرآن: (2/ 55 - 56).